مجلة إشكالات في اللغة والأدب — مجلد: 13 عدد: 2، يونيو 2024
ص: 110 - 123 — E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الرمز ومعراج لغة الخطاب الشعري الصوفي المعاصر-قراءة في ديوان براءة لعثمان لوصيف

The Symbol and Escalation of the Language of Contemporary Sufi A Reading of Othman Loussif Innocence Collection-Poetic Discourse

لخضر شريد *
Lakhdar cherrid
مخبر التأويل وتحليل الخطاب
جامعة عبد الرحمن ميرة- بجاية (الجزائر).
university abderrahmane mira .bejaia (Algeria)
lakhdar.cherrid@univ-bejaia.dz

تاريخ الإرسال: 2024/03/21	تاريخ القبول: 2024/04/12	تاريخ النشر: 2024/06/02

مُلخّص البحث

تسعى هذه الدراسة لرصد تشكل الدلالة الصوفية في بعض الرموز التي اتكأ عليها الشاعر عثمان لوصيف في التعبير عن تجربته الشعرية، من خلال توظيفه للعديد من الرموز كرمز الرحلة والخمر، والتي لوّح بها إلى جملة من المعاني والدلالات الكامنة في طبيعة الرمز الصوفي ذاته، حيث تمكن الشاعر عبر الرمز من تطويع اللغة القادرة عن التعبير عما يتأبى عن الوصف والتحديد، وتبرز الدراسة ذلك التعالق و التضايف بين التجربة الشعرية المعاصرة والتجربة الشعرية الصوفية باعتبارها أهم تجربة اتكأت على الرمز للتعبير عن الذات وأحوالها، كما هو وسيلة وتجربة في اللغة ذاتها وايصال ما لا يمكن إيصاله بالعبارة، فجاءت الرموز مثقلة بالرؤى والدلالات العميقة والمختلفة.

الكلمات المفتاح : دلالة، رمز، تصوف، شعر معاصر.

Abstract :

This study aims to observe the formation of Sufi significance in some of the symbols that the poet Othman Loussif relied upon to express his poetic experience, by employing numerous symbols such as the journey and wine, which indicated towards a series of meanings and connotations inherent in the nature of the Sufi symbol itself. The poet, through these symbols, succeeded in adapting language to express the indescribable. The study brings to light the

* لخضر شريد : lakhdar.cherrid@univ-bejaia.dz

correlation between contemporary and Sufi poetry, as it is considered the principal experiment that has relied on symbolism to express the self and its situations, thus, serving as a tool and experimentation in language to communicate what cannot be put into words. Hence, these symbols carry rich visions and profound, diverse connotations.

Keywords: significance, symbol, Sufism, contemporary poetry.

. مقدمة:

مثلت التجربة الصوفية رافدا مهما من روافد التجربة الشعرية المعاصرة، وملمحا من ملامحها البارزة، دفعت بالحركة الإبداعية الشعرية إلى مغامرة أوسع، راحت تنشد وتمثل رؤيا جديدة ترتكز على التراث وتبحث فيه عن رموز يجسد فيها الشعراء ومن خلالها رؤاهم المعاصرة، حيث عاد الشعراء إلى التراث الصوفي لتطعيم تجاربهم وتأصيلها، في محاولة ربط المتلقي بتراثه وتأصيل هذه التجارب وتأثيثها بالأشكال والأساليب الجديدة القادرة على صوغ التجربة ومنح القصيدة أقصى طاقاتها التعبيرية، لذا فقد وجد الشاعر المعاصر في الرموز الصوفية البدائل التي تثري اللغة وتعبر عن أحاسيس الذات وتبوح بالكثير من الدلالات والرؤى، ومن خلال تعامله مع اللغة بطريقة متفردة تكون عملية الاشتغال الرمزي في صلب بناء التجربة الشعرية والشعورية، حيث تتشكل دلالات الرمز في الخطاب الشعري الصوفي المعاصر، وفي بحثنا هذا سنعمل على تقصي الكمونات الدلالية للرمز الصوفي في ديوان براءة للشاعر الجزائري عثمان لوصيف ، حيث نجد الشاعر ينهل من معين التراث الصوفي ويغرف من سلافة الديباجة الصوفية في عرامتها وتأججها، فما المقصود بالرمز؟ وما هو التصوف؟ ولكون التجربة الصوفية تجربة تنسج خيوطها من جناح الرؤيا الرمزية الغامضة وتسعى لمعانقة المطلق، وتمتاز بالغموض والالتباس، ما هي أهم الرموز التي وظفها الشاعر في ديوانه؟ وكيف؟

أولا. الرمز والتجربة الشعرية المعاصرة:

ضمن النزعة الحداثية والمعاصرة للتجربة الشعرية الجزائرية يتجلى ذلك التواشج بين الشعر المعاصر والتصوف، إذ صارت القصيدة المعاصرة لحظة كلية تستوعب الوضعية الإنسانية في شموليتها مستفيدة من انفتاحها على تجربة الخطاب الصوفي الذي تجاوز لغة الخطاب العادي إلى لغة أكثر إيحائية ورمزية، الأمر الذي دفع الشاعر المعاصر المسكون بهاجس البحث عن عالم أكثر كمالا من عالم الواقع الفضيع إلى استعارة هذه اللغة ورموزها بما هي لغة لشمول التجربة الإنسانية في أبعادها جميعا، مستثمرا طاقاتها الإيحائية كلغة منزاحة ومتجاوزة بما يرفع من وظيفة لغته شعريا ودلاليا، هذا التقاطع بين التجربتين أدى إلى اتحاد التجربتين في طريقة التعبير، والخطاب الشعري الصوفي المعاصر يحمل رؤية كونية ويشكل نصا مغريا لما يفتحه من مجالات التأويل

والتفاعل الناجم عن فاعلية التجاوز التي ترتبط بلغته في "سبيل اختراق فجوات العالم المغمورة التي تفضي إلى أكوان أخرى تكون فيها الحرية المطلقة هي جوهر التكين".[1]

لذلك فإن الشاعر المعاصر حين يتكئ على التجربة الصوفية ورموزها؛ فإنه ينشد الكشف عن جوهر الحياة وحقيقتها، ويسعى لبناء تجربة شعرية جمالية مغايرة، منوطة بخلق برازخ دلالية وخلق لغة ثانية داخل اللغة قوامها الرمز، ومن أهم نقاط الالتقاء والتضايف بين التجربتين هو تشابه تجربة الشاعر المعاصر بتجربة الصوفي في ارتباطها بالوجود وسعي كل منها إلى الاندماج في الكون والاتحاد بإيقاعه الخفي، وفي التركيز على الجانب الميتافيزيقي ونشدان الحلم والتغيير، وهناك ظاهرة الاغتراب التي نجدها عند الشاعر المعاصر كما نجدها عند الصوفي، ونتيجة لهذا الاغتراب نجد الشاعر المعاصر يعاني الحزن والأسى، والشعور بالفقد والبحث الدائم عن الذات.

ثانيا. دلائل الرمز ورمزية اللغة الصوفية في ديوان براءة:

يأتي اهتمام الشاعر عثمان لوصيف بالرمز الصوفي في سياق تجربته الشعرية سعيا منه لتشكيل لغته الحداثية، مرتكزا على الخطاب الصوفي ومستفيدا من دواله ومدلولاته المختلفة في إثراء تجربته الشعرية والارتقاء بنصه إلى مراتب الشعرية ومن أهم الرموز:

1.رمز الخمر:

رمز الخمر من أقدم الرموز في التجربة الصوفية، حيث طوع الصوفيون الخمر رمزا للتعبير عن تجربتهم الفريدة والمتفردة، إذ هو أحد أهم الرموز التي استخدمها الصوفية في نصوصهم، فهم يلوحون به إلى جملة من المعاني الذوقية معتمدين الألفاظ المعروفة في المعجم الخمري، فيذكرون الساقي، والكؤوس، والدنان وغير ذلك توصلاً إلى إقامة علاقات تشف عن أحوالهم وسرائرهم، ومن تجليات هذا الرمز ، يقول عثمان لوصيف:

وَيَخْتَلِجُ الماءُ عَبْرَ المْدَى حَبقاً وحُمَيَّا
إلى أَيْنَ يَمضِيْ بِنَا السُّكْرُ يَا عِشْقُ
أَيْنَ حُدُودُ غِوَايتنَا
أَيْنَ.. أَيْنَ القَرَارُ ؟.[2]

هي حالة وجدٍ صوفي تتلبس بالعشق، فيزيدها انفعالا وتدفقا، نهر من الوجد فسيح الأمواه، لا نهاية له ولا قرار، ويبدو أن حالة السكر هذه هي أكثر الأحوال الصوفية امتلاء بالتوتر "والوجدان الغامر والعاطفة المشبوبة"،[3] توتر يجسد ما اختمر في ذهن(شاعرنا) من تساؤلات تشبه الحالة التي يغيب فيها الصوفي عن عالم الدنيا.

والسكر بوصفه من الظواهر الروحية العالية، يكون تعبيرا عن تجارب وأذواق، وعند القشيري:" السكر غيبة بوارد قوي، وأنه زيادة على الغيبة، وإذا كانت الغيبة للعباد بما يغلب على قلوبهم من موجب الرغبة والرهبة ومقتضيات الخوف والرجاء، فإن السكر لا يكون إلا لأصحاب المواجد"،[4] يقول عثمان :

كُنْتُ فِي زَخَمِ السُّكرِ أَبحَثُ عَنِّيْ
وَنَادَيْتُ عَبْرَ الشَّوَارِعِ نَادَيْتُ: عثمان...عثمان
لَقَّنِيْ فُسْتَانُهَا
لَقَّنِيْ بُسْتَانُهَا
لَقَّنِيْ مَعَهَا، وَاحْتَوَانِي الْبُخُورُ فَغِبْتُ.[5]

تتفاعل بنية السكر مع بنية المرأة؛ لأن الباعث الحثيث عليها هو العشق، عشق الذات الإلهية في المتعين المحسوس وهو (المرأة)، وما ينتاب الذات من واردات قوية حد الغيبة والذهول والامتزاج والفناء في حضنها. ويقول في موضع آخر:

مَنْ أَزَاحَ اللَّيْلَ عَنْ جَفْنَيَّ
مَنْ مَسَّدَ أَعْصَابِي الطرِيةُ
وَسَقَانِيْ حَبَقاً.. مِسْكًا.. وَرَاحًا كَوكبيه.[6]

النشوة التي تتولد في نفس الشاعر، نوع من الشعور والوعي الكوني المرمز له بالراح الكوكبية التي توحي إلى نورانية خاصة تبعث في شاربها ظلالا من المعاني والمعرفة والحياة والسمو نحو الحقائق العليا، تتجاوز في دلالتها المعاني العرفانية والمقامات العلوية، إلى ارتباطها بالواقع والديمومة والإزاحة والرغبة في التجدد، وأن يحي المرء في مستوى آخر "مفعم بالتوقد بعد أن وصل معه الوعي إلى درجة عالية من الحكم على الأشياء بمنظور معرفي قائم على تجربة الوعي الإبداعي المرتبط بالواقع الذي لفظه".[7]

بهذا، فإن الرمز عند لوصيف يتجاوز المركوز في السياقات الغنوصية لدلالة الخمر إلى دلالات تخترق في :" لغتها حدود المرئي إلى التعبير بالإشارة عن اللامرئي"،[8] وفيه إيماءة قوية إلى أن صوفية الشاعر المعاصر ليست " نابعة من قناعة دينية ولا هي نتيجة لرؤية مذهبية فحسب، بل مردها إلى صوفية وجدانية أدبية ذوقية، ينطلق من ملاحظة الواقع المرئي ويشير إلى الأشياء غير المرئية ويدل عليها"،[9] بالإضافة إلى ما ينطوي عليه الرمز من قدرة تأويلية ترفع من طاقة التعبير والبوح الشعري.

2. رمز المرأة:

دأب المتصوفة على توظيف المرأة رمزا موحيا دالاً على الحب الإلهي والتعيين الحسي لتجلي الجمال الإلهي، يتكئ عثمان لوصيف على رمز المرأة بنصه أو بطبيعته الأنثوية، تنويعا لمميزات جوهرية كامنة في الأنثى، وفي صورة "مشربة في حسيتها بدلالات تلويحية نابعة من تجربة الحب الصوفي المفعم بأحوال وجدانية مشبوبة"،[10] يقول عثمان:

مَنْ يُحرِرُنِي مِن نَوَاميسِ سِحرِكِ
يَا امْرَأَةً مِن طُقُوسِ البِدَايَاتِ؟
تَبتَسِمِينَ فَتَرْقُصُ نَحلةُ قَلبِي

على أُقحُوَانةِ ثَغرِكِ.[11]

وتحول السر الأنثوي إلى حديقة ندية الأزهار، فهاجت أسارير وتهدَّجت مشاعر، حيث صار حضور المرأة فيضا جماليا طافحا، وإن دخول المعنى في الأشياء الحسية الرامزة هو" نوع من الستر والإخفاء للطافة المعنى ذاته ولأنه الرمز الذي يلتقي فيه الظاهر والباطن وإيجاز الشامل واختصار المجمل وحصر اللانهائي"،[12] ويقول في موضع آخر:

تِلكَ صُوفيَّتي
أن أُطَالِعَ في نُورِ وَجْهِكِ
سِرَّ الحياةِ
وسِرَّ الغِوايَاتِ
أن أتَوضَّأَ بالعشقِ في ظلِّ عَينيكِ
حيث تُرفرِفُ تَسبيحةُ الكَون.[13]

يحشد الشاعر جملة أحوال وهو ينقل ظلاله وأغواره إلينا أو قل: إليه هو ليطل منه على الهُوَى (ج هوة) السحيقة التي تتلاطم فيها نوازعه وصبواته، حيث اتحدت الرؤى واللظى المحرورة في الأعماق، والمرأة رمز للافتتان والجمال والحب، (سر الحياة وسر الغوايات، وفي ظل عينيها يتوضأ بالعشق، وبها يتم فهم الإنسان والكون معا..)، هذه اللمع الشعرية التي تسبر أغوار النفس وتقفز من فوق الحدود والخطوط تكوّن الشرانق الإبداعية وهيئات المعاني وأحاسيس الذات، والتي "تقدم صياغة استيطيقية للمرأة بوصفها مجازا لجمال أكثر ديمومة وكلية".[14]

ينفتح رمز المرأة على دلالات مغايرة، تغني الرمز وتجعل منه طاقة تعبيرية تزيد من شعرية النص ونماءه، يجمع فيه المتصوفة بين الحب الإلهي والحب الإنساني والإهابة بأساليب مأخوذة من شعر الغزل العفيف منه في رومانسيته المفرطة الشفافة والصريح في حسيته وشهوانيته المباشرة، يقول لوصيف في قصيدة "وهران":

أنتِ هَمْهَمَةُ النَّهدِ تحت ارْتِفَافِ القميصِ المخدَّرِ
تَغْتَغَةُ الخصْرِ كسَّرَهُ الغَنَج
تَنغِيمُةُ الخَطوَاتِ الرَّشِيقةِ فوق الرَّصيفِ
رَفيفُ الجُفونِ مُكحَّلةٌ بالجنونِ
وهَفهَفَةُ الخصَلاتِ الشَّذِيهْ.[15]

بالرغم من أن الشاعر يتكلم عن مدينة وهران لكنه تمثلها امرأة هام بها وبسحرها فملكت قلبه وأسرت لبه، إنه الهيام بالجمال الأنثوي والتورط فيه، جمال أنثوي طافح يكني به على تلك الأحاسيس الغائرة في مطاوي النفس ومحاريب التخييل، مغرقا في تصوير العناصر المحسوسة للأنثى كرمز فني حيث يسقط الدلالات الحسية المحدودة ويحتفظ بالإيحاءات خلف المعنى "سابحة في خيال المتلقي دون أن تحبسها قيود المعاني

المتوارثة والسياقات التي تعاقبت عليها"،[16] وهكذا يأتي رمز المرأة ليعبر الشاعر عن مراده في الوصول إلى الله وتحقيق الحب الإلهي والوصال والشوق إلى البدايات وبكارة الكون.

3. رمز المعرفة:

الحب قسيم المعرفة "والمعرفة لازمة للحب، وهي إحدى دواعيه وأسبابه ومن عرف عن الله أكثر أحبه أكثر ومن لم يعرف عن الله إلا القليل كان حبه على قدر معرفته"،[17] فالصوفية طائر بجناحين: المحبة والمعرفة، وإن اختلف الصوفيون في تقديم أحد الحالين على الآخر، فكان بعضهم "يقدم المحبة على المعرفة والأكثرون يقدمون المعرفة على المحبة، وعند المحققين: المحبة استهلاك في لذة والمعرفة شهود في حيرة وفناء في هيبة"،[18] وهو في عرف الصوفية آخر الطريق المفضي إلى الحضرة و الدنو من ذات الحق، من فرط المحبة ومن فرط المعرفة. يقول عثمان:

وَأَنَا الْعَاشِقُ الْمُتَصَوفُ
عَانَقْتُ كُلَّ الْمَدَارَاتِ
كُلَّ البُرُوقِ
وَكُلَّ المَرَايَا
أُفَتِشُ عَنْ مُنْتَهَايَا
أُفَتِشُ عَنْ سِدْرَتِيْ
مَا ارْتوَى الْقَلْبُ يَوماً وَلَا هَدَأَتْ مُهجَتِيْ.[19]

يعبر عثمان لوصيف عن رغبته الجامحة ولهفته للاغتراف من فيوضات المعرفة الربانية، فالقلب ينبوع الحب ومورد الواردات والإلهام الفياض، هو مركز المعرفة "وعندما تضيء شمس المعرفة يصبح كل فرد مبصرا قدر استطاعته ثم يجد الحقيقة"،[20] لذا رأت الصوفية أن انفتاح الذات على موضوعها الذي هو الحقيقة لا يتم بالعقل وإنما على الحب "مما بوأ القلب مكانة خاصة في المعرفة الصوفية وجعل العقل حجابا"،[21] والتي يعد البحث عنها بحثا مضنيا وشاسعا(لفظ العموم: كل)، حيث تزداد اللهفة كلما ازداد الطلب؛ أي تعميق شمولية الرؤية التي يسعى الشاعر إلى بلورتها، "فهو جهد ذو منطويات رمزية تضيء لنا عالم الكاتب وتفصح عن مخبآت نفسه وما فيها من قيعان أو ذرى نفسية ووجدانية"[22] . يقول عثمان:

ثُمَّ.. حِينَ رَجَعْتُ إلى الْأَرْضِ
أَحْتَضِنُ الطِينَ وَالياسَمِينَ
تَجَلَيْتِ فِي أُفُقِي
وَاكْتَشَفْتُ بِأَن سَمَائِي
تَخْتَفِيْ فِي عُيُونِ النِّسَاءِ.[23]

الكشف معرفة وحركة دائمة يكشف من خلالها عن امتداد النفس والوجود، والعلاقة بين الإنسان والله، "فالمعرفة الحقيقية هي معرفة الشيء من داخل، فلا نعرف الوجود إلا بالشهود: أي بالإشراق"،[24] وفي هذا تجل للمكاشفة الجمالية الصوفية التي تخترق الظاهر المرئي إلى الإيماءة والإشارة عن الباطن الخفي، ما يعكس تجربة ذاتية تحاول أن تعيد للإنسان وللشاعر "وحدته المفقودة -معرفيا- مع الأشياء والعالم والله"[25]. وهذا المضي في المجهول والمغامرة في سبيل الكشف تلخص وجها من وجوه التجربة الإنسانية الممتدة.

والمعرفة موطنها القلب الذي امتلأ بالله "فرحا وسرورا ويقينا، فانشرح الصدر وانفتح، فصارت الآخرة له كالمعاينة ولاحظ الملكوت بتلك العين، عين الفؤاد في فسحة ذلك النور المشرق في الصدر فرأى شأنا عجيبا من عظمة الله"،[26] وإذا حصل له ذلك، هام القلب وذهل عن كل موجود في الوجود (الفناء) وهو حال أهل المحبة والمعرفة، فالمعرفة فناء عن الخلق وبقاء بالحق، يقول عثمان :

فَمَاذَا أُغَنِّي ؟ وَمَاذَا أَقُولُ ؟
وَهَلْ يَمْلِكُ الْمُتَصَوفُ فِي حَضْرَةِ الحَق
غَيْرَ الفَنَاءِ.. وَغَيْرَ الذُهُولْ؟[27]

فهم، لا يبحثون عن الحقيقة خارج الذات، ولا يبحثون عن الله خارجها لأن شعورهم الدائم بوجوده وشهوده قد ملأهم يقينا به وطمأنينة إليه فهو "عند العارفين حاضر قريب يتحققونه في ذواتهم ويناجونه بقلوبهم فيتجلى لهم مشرقا مضيئا"،[28] وغير ذلك أي بالتجرد والعقل، لا يغني في معرفة الله ولا سبيل له لمعرفة السر الإلهي.

وينفتح رمز المعرفة على امكانات دلالية متعددة، كالتلويح بالنار الباطنية، هذه النار التي ارتبطت بدلالة الهداية، هي نار مؤنسة عند شاعرنا؛ لأنها تعيش في جراحه، يشعلها لتهديه في أسوأ لحظات الحياة انكسارا لتبدو الذات ذاتها في اشتعال دائم: "تبدأ بالاحتراق وتنتهي بالفناء في الحقيقة المطلقة حيث تذهب الصفات الخلقية وتتلاشى"،[29] يقول عثمان في قصيدة " أنشودة النار" :

آهٍ، أَيَّتُهَا النَّارُ
فِي البَرِّ وَالبَحْرِ تَشْتَعِلِينَ
مُنغِّمَةً جُوعَكِ الأَبَدِيَّ
فِي البَدْءِ كُنْتِ
وَفِي البَدْءِ عَانَقْتِ رُوحِيَ اليَتِيمَة
وَالْآنَ...هَاتِي يَدَيْكِ الْمُضَرَّجَتَيْنِ
لِأُعْجِنَ جُرْحِي بِجُرْحِكِ
وَلْنَنْصَهِرْ شَبَقاً فِي شَبَقْ
أَيْنَ تَرْمِينَ بِي

أَفِي كُلِ يَومٍ لَهِيبٌ جَدِيدٌ
وَفِي كُلِ يَومٍ رَحِيلٌ جَدِيدْ؟
أُبَارِكُ مَجْدَكِ أَيَّتُها القُوَّةُ البَاطِنِيَة
أُبَارِكُ فِيكِ البَدَاءَةُ وَالسِحْر
والرَمْزَ والسِرْ.[30]

هي وقفة الذات المتأملة في أسرار هذه النار المباركة، مصدر الطهر والنقاء والنور والتوهج، النار التي تخلص القلب من ظلماته وتعطره رحيقا إلهيا، وهي عنده رغبة في الخلاص "وتعويضا لغياب مؤلم وملء لفراغ ينخر الإنسان ووجدانه"،[31] إذ توحي بالرغبة في التغيير والتجدد، وفي مناجاة البداءة ما يترجم ذلك الإحساس العاتي بمحنة الوجود.

4. رمز النور:

أهاب المتصوفة بالطبيعة التي تحولت " في إهابتها بالعلو المحايث إلى شفرة أو شفرات يقرأ الصوفي فيها بضرب من الكشف لغة ذات حدين إحاليين أحدهما حسي فيزيائي والآخر روحي إلهي"،[32] فالكثير من التجارب الصوفية تفيض بهذا الرمز كما نقرأ عند ابن عربي، وابن الفارض وغيرهم، لتشكل "حشدا كبير من الرموز والكشوف النورانية التي تشع بنورها في الكون، فيتهلل الوجود ويتشح الكون بالبهجة والسرور ويغدو الشاعر ذاته فيضا من النور يصاعد إلى النور ويمشي فوق النور"،[33] يقول عثمان في قصيدة " البرق":

يُومِضُ البَرْقُ فَتنْثَالُ المَرَايَا
بَينَ عَيْنَيَّ شَفِيفَاتٌ نَدِيَهْ
يَا رَذَاذَاتِ السَّمَاوَاتِ البَهِيَهْ
يَا غُصُونَ البَرْقِ
يَا نَبْعَ التَّجَلِيْ
ظَمِئَتْ رُوحِيْ وَجُنَّتْ شَفَتَايَا.[34]

تحيل دلالة النور إلى ما يقذفه الله سبحانه وتعالى في قلوب عباده المؤمنين وهي تنشد الارتواء من غيوث المعرفة الإلهية، وهذا الحضور المكثف لدال النور في الأبيات يكشف عن ذات هائمة في أشواقها الصوفية، ويكثف من حمولته الدلالية ويعمقها، استجابة لنداء الرغبة والاستمطار الشعري، إذ تحمل دلالة "شفتايا" مراد الشاعر في الارتواء من ينابيع الإلهام، هي لحظة تؤذن لكل من الشاعر والصوفي بتحقيق استجابته الخاصة لنداء الأعماق" حيث يغدو فيها -هو نفسه-لحظة من لجة هذا التيار أو بارق من إشعاعه الكلي المطلق"،[35] يقول عثمان:

وَلكِنَّنِيْ الآنَ مُتَحِدٌ بِالأَشعَةِ
فَلْيَهبطِ اللَّيلُ مَا شَاءَ

وَلتَغْرَقِ الشَّمسُ
فِي لجّةِ الشَّفقِ الدَّمَويْ.[36]

قبسات من النور والإشراق والإقمرار، فالأفق رؤى شفيفة التقاسيم والشفق مخضوب المعالم، والليل رغم العتمة "تكون قوى النفس فيه كالمرايا التي تنعكس عليها الموضوعات التي توجد منتقشة في عالم آخر هو عالم الخيال أو المثل المعلقة"،[37] والتي متى استعدت قبلت الانعكاس، وانتقشت فيها جملة من هذه الأنوار الإلهية، وهي تشف عن ذات مندفعة في تغييها المطلق والانفتاح عليه في فضاء الرؤيا الشعرية وهو فضاء " يشير إلى عدم الرضا بالجانب المكشوف من العالم، إنه موقف تجاوزي ينقض واقع الركون إلى هذا الجانب المضاء"،[38] وفي نزوع طهراني يترقى إلى الجليل من المعاني، يقول:

صَاعِدٌ فِي خُيُوطِ الضِّياءِ
نَحْوَ عَيْنيْكِ أَمْشِيْ على دَرَجاتِ النَّدَى
يَا أَيُّها الفَلَقُ المتَوَهِّجُ فِي رَحِمِ اللَّيلِ
يَا شُعْلة الرُوحِ
يَاشَهقةً فِي دَمِي
صَاعِدٌ نَحْو عَيْنيِنِ لَأْلاءتَيْنِ
هُما سُدَّتِي وَزُمرُّدَتِي
وَهُما نَشْوَتِي وَاشْتِفائِي.[39]

يؤكد النموذج توق الشاعر إلى أصله النوراني الذي يحتجب وراء الإنسان ذاته في عالمه الأرضي، والذي يحول دون معانقة الذات روحها، وملامسة نبض الوميض الإلهي، وشاعرنا يجدُّ في بحثه عن معان روحية تعيد له إحساسه بالوجود في هذا الكون، واستبطان سره الذي تحجبه المادة أو الذات الإنسانية في طينيتها، هذا البحث التي تميز بالقلق الوجودي يريد أن يتجاوز الوضع الراهن للحياة في عالم غير هذا العالم.[40]

وفي قوله:

أَيَّةُ شَمْسٍ كَسَتْكِ سَنًى وَأُلُوهِيةً
وَحَبَتكِ غِنًى، حَمِيميةً
أَيُّ غَيْبٍ تَمَخَّضَ عَنْكِ
وَأَيُّ إِلهٍ أَفَاضَ عَلَيْكِ نَفَائِسَهُ اللُّؤْلُؤِيهْ.[41]

وهذا ما رمز إليه الصوفية بالفاعل الواحد الذي احتجب بالأسباب، فإذا أزال ذلك الواحد لم ير غيره فاعلا، على أن هذا التجلي والاهتداء لا يكون إلا بنور الفعل الإلهي المتكشف أولا.[42]

5. رمز الرحلة:

في نزوع المتصوفة نحو الرحلة والسفر اتصال بالذات الإلهية وتوطيد للصلة بين العبد وخالقه، هذا النزوع إلى الرحلة؛ لأن الصوفي "يعيش منفيا غريبا في العالم المادي بعيدا عن موطنه الأصلي وحقيقته المثلى المطلقة التي صدر عنها بواسطة النفخ الإلهي فضل عن الحقيقة لما تلوث جوهره الروحي بماديات العالم السفلي ولا يتم له العروج من جديد إلا إذا صفى نفسه من أدران المادة وعادت نظيفة كما كانت عندما هبطت من عالم الطهر والخلود"،[43] فغاية ما ينشده الصوفي هو الوصول إلى الحقيقة التي تحجبها ستائر الواقع والتيه الإنساني في طبيعته الطينية، يقول عثمان:

صَاعِدٌ

دَمِيْ يَشْرَبُ النَّارَ وَرُوحِي تَطِيرُ مِنْ أَثْوَابِي
صَهْوَتِي البَرقُ وَالتَبارِيحُ أكوابِي
وَسرُ المجْهُولِ سِرُ اكتِئَابِي
أَيْنَ يمْضِي بِي التِهابِي ؟
وَأَينَ المُنتَهَى ..أَيْنَ آخِرُ الأَبْوابِ؟[44]

رمزية الرحلة تتجلى في توق الشاعر للخلاص وتحرير ذاته، لتنطلق سابحة في أفضية و أمداء لا نهايات لها، فالمتصوفة يرون بأن الجسد سجن للروح وهو ما عُبر عنه في قوله "وروحي تطير من أثوابي"، هو توق الروح للانفصال عن الجسد/الواقع وعودة الروح " إلى عالمها المثالي الأول التي كانت ترتع فيه خالصة من شوائب المادة، وعلائق الأجساد الكثيفة التي تعوقها بعد أن تلبست بها عن الارتقاء إلى حظيرة القدس والعروج إلى حضرة الروح الكلي".[45]

فمن خلال رحلته وعروجه يتطهر من أوضاره وترابيته ومادته النهمة ونزعاته الحسية الجامحة. هذا التمازج بين (الحسي/المعنوي) وبهذا المفهوم يتضح أن التجربة الصوفية لدى شاعرنا " تتجه من الباطن السحيق بالصعود إلى الأعلى وذلك من أجل اختطاف تلك الأمنية اللحظية واقتناصها بدافع الرغبة والتسامي والترفع عن الهابط والتعالي إلى النوراني حيث توغل الذات في سكينتها"[46]. كما هي نزوع لهدم زمن الاغتراب واستبداله بزمن آخر، إنها محاولة للخلاص عبر ولادة جديدة تتحقق "بهدم زمن الاغتراب واجتثاثه من الوعي واستبداله بالزمن المشرق المضيء".[47]

في هذا المقام، لا تكون الرحلة صعودا فحسب، الرحلة تكون نزولا أيضا، ذلك "أن السفر النزولي والسفر الصعودي ليسا ثنائية ضدية فالفصل بينهما راجع إلى اللغة، أما التجربة التخييلية، فتؤكد اتصالهما وتوحدهما لأن كل نزول صوفي في الآن ذاته صعود، وهما معا يقودان إلى تجاوز الانشطار والانفصال"[48]، والرحلة تكون مبنية على (السكر) يقول عثمان:

إِلَى أَيْنَ يمْضِي بِنَا السُّكْر يَا عِشقُ
أَينَ حُدُودُ غِوَايَتِنَا

أَينَ...أَينَ القَرَارُ ؟
نَسَفنَا الحَرَائِطَ...خُضْنا المُحَالَ
مَزَجْنَا الصَّدَى بِالنَّدَى
والنِّهَايَاتِ بِاللَّانِهَايَات.[49]

لا يصل المتصوف إلى الحقائق الكامنة في المظاهر إلا حين يعطل حاسة الوعي بواسطة السكر ويكون العشق هو السبيل إلى الوصول والطريق الموصلة لتلك الحقائق، حيث تبدأ الرحلة بالاستعداد للسفر(السكر)، ثم ركوب المطية (وسيلة السفر) ثم الانطلاق في الرحلة (نسفنا، خضنا، مزجنا،.) وتنتهي الرحلة بالوصول (ها نحن نلمس كوكب ميلادنا) وعبر هذه المحطات تتم الرحلة الصوفية وعوالمها، التي لا تخلو من المكابدة،" لكنها محملة بالخصوبة والنبض، وغزيرة بالعطاء والتفتح، حيث لا توقف ولا استقرار ولا وصل، إنما هو سفر دائم ورحيل مستمر نحو اللانهايات"[50].

خاتمة:

أفضت الدراسة إلى جملة من النتائج أبرزها :

- هناك ترابط وتواشج بين التجربة الصوفية والتجربة الشعرية المعاصرة، خاصة وأن التراث الصوفي يمثل منجما ورافدا مهما من روافد بناء التجارب الشعرية المعاصرة وتأصيلها.
- عكست نماذج الدراسة تجربة شعرية أصيلة لدى الشاعر عثمان لوصيف قوامها هذا المشيج الرمزي المندس بين تضاعيف الديوان.
- اشتغلت الرموز الصوفية على استبطان الأحوال الغائرة في مطاوي النفس وسبر أغوارها.
- ساهمت الرموز الصوفية الموظفة في إثراء القصائد وصبغها بجمالية مغايرة، وذلك ما لمسناه من دلالات تعددت وتنوعت بتنوع وتعدد الرمز الصوفي في الديوان مثل رمز الخمر ورمز الرحلة والمرأة والمعرفة.
- إن القصائد في ديوان براءة تفضي إلى تجربة شعرية صوفية متميزة في الأدب الجزائري المعاصر.
- القراءة في لغة عثمان لوصيف ورموزه تشف عن لغة انزياحيه تمتاح من عوالم صوفية، وتعبر عن أحوال وجدانية ونفسية كامنة.
- وظف عثمان لوصيف الرمز الصوفي ولوّح بها إلى جملة من المعاني مثل الوصول إلى الله وتحقيق الحب الإلهي والوصال بما يتوافق ورؤيته الشعرية والشعورية.

هوامش:

[1] عبد العزيز بومسهولي،1998، الشعر والتأويل،ط1، الدار البيضاء، المغرب، إفريقيا الشرق للنشر، ص 53
[2] عثمان لوصيف،1997، ديوان براءة،ط1، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر، ص 50
[3] عاطف جودة نصر،1978، الرمز الشعري عند الصوفية،ط1، بيروت، لبنان، دار الأندلس، ص382

[4] عبد الكريم القشيري،2000، الرسالة القشيرية،ط2، بيروت، لبنان، دار الجيل، ص 38
[5] عثمان لوصيف، ديوان براءة، ص 59
[6] المصدر نفسه، ص 14
[7] عبد القادر فيدوح،2009، إراءة التأويل ومدارج معنى الشعر، ط1، دمشق، سورية، صفحات للدراسة والنشر، 229
[8] المرجع نفسه، ص 250
[9] أدونيس، د.ت، الثابت والمتحول صدمة الحداثة، ط4، بيروت، لبنان، دار المعرفة، ص 203
[10] عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، ص180
[11] عثمان لوصيف، ديوان براءة، ص 45
[12] آمنة بلعلى،2009، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصر، تيزي وزو، الجزائر، دار الأمل للطباعة والنشر، ص 81
[13] عثمان لوصيف، ديوان براءة، ص 44
[14] عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، ص255
[15] المصدر نفسه، ص 55
[16] عبد الله الغذامي،2006، تشريح النص، مقاربات تشريحية لنصوص شعرية معاصرة،ط2،الدار البيضاء، المغرب، المركز الثقافي العربي، ص17،18
[17] أحمد بهجت،1984، بحار الحب عند الصوفية،ط2،بيروت، لبنان، مؤسسة المعارف للطباعة، ص 45
[18] إبراهيم محمد منصور،1996، الشعر والتصوف-الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر (1945-1995)، القاهرة، مصر، دار الأمين، ص 43
[19] عثمان لوصيف، ديوان براءة، ص 48
[20] فريد الدين العطار،2014، منطق الطير، تر: بديع محمد جمعة،ط1، مصر، دار آفاق للنشر والتوزيع، ص 375
[21] خالد بلقاسم،2002، أدونيس والخطاب الصوفي، د.ط، الدار البيضاء المغرب، دار توبقال للنشر والتوزيع، ص 73
[22] علي جعفر العلاق،1990، في حداثة النص الشعري دراسات نقدية، ط1، العراق، دار الشؤون الثقافية العامة، ص 55
[23] عثمان لوصيف، ديوان براءة، ص48
[24] أدونيس، د.ت، الصوفية والسوريالية،ط3،بيروت، لبنان، دار الساقي، ص 40
[25] نصر حامد أبو زيد،2008، إشكاليات القراءة وآليات التأويل،ط8، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ص243
[26] إبراهيم بسيوني،1969، نشأة التصوف الإسلامي، مصر، دار المعارف، ص ص 265-266
[27] عثمان لوصيف، ديوان براءة ص 56
[28] أماني سليمان داود،2002، الأسلوبية والصوفية، دراسة في شعر الحسين بن منصور الحلاج، القاهرة، مصر، دار غريب للطباعة، ص197
[29] محمد بنعمارة،2000، الصوفية في الشعر المغربي المعاصر(المفاهيم والتجليات)،ط2، المغرب، شركة النشر والتوزيع المدارس، ص93
[30] عثمان لوصيف، ديوان براءة، ص 71
[31] آمنة بلعلى، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصر، ص80

[32] عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، المرجع السابق، ص290
[33] عبد الحميد هيمة،2008، الخطاب الصوفي وآليات التأويل، قراءة في الشعر المغاربي المعاصر، الجزائر، المؤسسة الوطنية ، ص 422
[34] عثمان لوصيف ديوان براءة، ص 13
[35] وفيق سليطين، 2013، الشعر والتصوف، ط2، سورية، دار الحوار للنشر والتوزيع، ص80،79
[36] المرجع نفسه، ص ص17،16
[37] عاطف جودة نصر،1984، الخيال مفهومهاته ووظائفه، مصر، دار الكتب، ص 83
[38] وفيق سليطين، المرجع السابق، ص71
[39] عثمان لوصيف، ديوان براءة، ص 47
[40] آمنة بلعلى،1995، أبجديات القراءة النقدية، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ص62
[41] عثمان لوصيف، ديوان براءة، ص 51
[42] عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، المرجع السابق، ص 293
[43] عبد الحميد هيمة، المرجع السابق، ص 321
[44] عثمان لوصيف، ديوان براءة ص ص 43،42
[45] عبد الحميد هيمة، المرجع السابق، ص 327
[46] عبد القادر فيدوح،2012، معارج المعنى في الشعر العربي الحديث،ط1، سوريا، صفحات للدراسة والنشر، ص 166
[47] المرجع نفسه، ص 342
[48] المرجع نفسه، ص 354
[49] عثمان لوصيف، ديوان براءة، ص 50،49
[50] عبد القادر فيدوح، معارج المعنى في الشعر العربي الحديث، ص 168

قائمة المصادر والمراجع:

قائمة المصادر:

1. عثمان لوصيف،1997، ديوان براءة،ط1، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر.

قائمة المراجع:

1. إبراهيم بسيوني،1969، نشأة التصوف الإسلامي، مصر، دار المعارف
2. إبراهيم محمد منصور،1996، الشعر والتصوف-الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر (1945-1995)، القاهرة، مصر، دار الأمين
3. أحمد بهجت،1984، بحار الحب عند الصوفية،ط2،بيروت، لبنان، مؤسسة المعارف للطباعة
4. أدونيس، د.ت، الثابت والمتحول صدمة الحداثة، ط4، بيروت، لبنان، دار المعرفة
5. أدونيس، د.ت، الصوفية والسوريالية،ط3،بيروت، لبنان، دار الساقي
6. أماني سليمان داود،2002، الأسلوبية والصوفية، دراسة في شعر الحسين بن منصور الحلاج، القاهرة، مصر، دار غريب للطباعة

7. آمنة بلعلى،1995، أبجديات القراءة النقدية، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية
8. آمنة بلعلى،2009، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصر، تيزي وزو، الجزائر، دار الأمل للطباعة والنشر
9. خالد بلقاسم،2002، أدونيس والخطاب الصوفي، د.ط، الدار البيضاء المغرب، دار توبقال للنشر والتوزيع
10. عاطف جودة نصر،1978، الرمز الشعري عند الصوفية،ط1، بيروت، لبنان، دار الأندلس
11. عاطف جودة نصر،1984، الخيال مفهومهاته ووظائفه، مصر، دار الكتب
12. عبد الحميد هيمة،2008، الخطاب الصوفي وآليات التأويل، قراءة في الشعر المغاربي المعاصر، الجزائر، المؤسسة الوطنية
13. عبد العزيز بومسهولي،1998، الشعر والتأويل،ط1، الدار البيضاء، المغرب، إفريقيا الشرق للنشر
14. عبد القادر فيدوح،2009، إراءة التأويل ومدارج معنى الشعر، ط1، دمشق، سورية، صفحات للدراسة والنشر
15. عبد القادر فيدوح،2012، معارج المعنى في الشعر العربي الحديث،ط1، سوريا، صفحات للدراسة والنشر
16. عبد الكريم القشيري،2000، الرسالة القشيرية،ط2، بيروت، لبنان، دار الجيل
17. عبد الله الغذامي،2006، تشريح النص، مقاربات تشريحية لنصوص شعرية معاصرة،ط2،الدار البيضاء، المغرب، المركز الثقافي العربي
18. علي جعفر العلاق،1990، في حداثة النص الشعري دراسات نقدية، ط1، بغداد، العراق، دار الشؤون الثقافية العامة
19. فريد الدين العطار،2014، منطق الطير، تر: بديع محمد جمعة،ط1، مصر، دار آفاق للنشر والتوزيع
20. محمد بنعمارة،2000، الصوفية في الشعر المغربي المعاصر(المفاهيم والتجليات)،ط2، المغرب، شركة النشر والتوزيع المدارس
21. نصر حامد أبو زيد،2008، إشكاليات القراءة وآليات التأويل،ط8، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب
22. وفيق سليطين، 2013، الشعر والتصوف، ط2، سورية، دار الحوار للنشر والتوزيع